

سورة البقرة مدنيّة

وهي مع البسملة مائتان وسبع وثمانون

اسمها: ورد هذا الاسم في عدة أحاديث على لسان الرسول ﷺ. لا شك أنه لا يتضح من هذه الأحاديث ما إذا كان النبي ﷺ قد أطلق عليها هذه التسمية بنفسه أم بوحى من الله تعالى، ولكنني على يقين أن أسماء السور كانت بأمر الله تعالى. ومن الروايات التي تذكر هذا الاسم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن.. هي آية الكرسي." (الترمذي، أبواب فضائل القرآن)

نزلت هذه السورة في المدينة المنورة على فترات، وعند البعض أن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (الآية ٢٨٢) ^١ نزل يوم النحر من حجة الوداع. وأيضاً نزلت آيات الربا في الأيام الأخيرة من البعثة النبوية. (الترمذي، أبواب فضائل القرآن. وابن ماجه)

ومما جاء عن فضائل سورة البقرة:

عن أبي هريرة قال: "بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذو عدد. فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم يعني ما معه من القرآن. فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال: ما معك يا فلان؟ فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم. قال: أذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعي أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: تعلموا القرآن واقروه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جرابٍ محشوٍّ مسكاً يفوح ريحُه في كل مكان، ومثل من تعلمه فتركه وهو في جوفه كمثل جرابٍ أوكيٍّ على مسك." (الترمذي، أبواب فضائل القرآن، سورة البقرة)

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت تُقرأ البقرة فيه لا يدخله الشيطان." (المرجع السابق)

عن ابن مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه." (المرجع السابق)

^١ لقد وُضعت أرقام الآيات في هذا التفسير باعتبار البسملة آية من كل سور القرآن، ما عدا سورة التوبة (الناشر).

عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى يُصْبِحَ: أَرْبَعًا مِنْ أَوَّلِهَا وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَآيَتَانِ بَعْدَهَا وَثَلَاثُ خَوَاتِيمِهَا أَوَّلُهَا: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ...﴾. (سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، سورة البقرة).

هذه الفضائل الذاتية لسور القرآن تشق في الظاهر على بعض المتعلمين إذ لا يستسيغون وجود كل هذا التأثير الخاص في سورة ما. ولكن لو أنهم نظروا من زاوية أن كل سورة تحتوي على موضوع خاص، ولا بد لهذا الموضوع أن يترك أثراً على القلب، لسهل عليهم فهم قضية الفضائل هذه.

وفي تعيين الرسول ﷺ لذلك الشاب أميراً على الجيش حكم عديدة.

أولها: أنه رغب الآخرين في حفظ القرآن وعدم نسيان ما حفظوه. كانت إمارة الجيش في ذلك الوقت لا تمثل كسباً مادياً وإنما كانوا يسعون إلى اكتساب رضا أبيهم الروحي ﷺ بدافع حبهم الذي لا يقدر قدره إلا من عرف لذة مثل هذا الحب.

وثانيها: أنه جرت العادة في تلك الأيام أن يكون أمير الجيش أيضاً إمام الصلاة، ومرجع الناس في المسائل الدينية. وتحتوي سورة البقرة على مسائل دينية أكثر من أي سورة سواها.. حتى قال حضرة ابن العربي إني سمعت من بعض أساتذتي أن في هذه السورة ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر (تفسير القرطبي). وهذا القول فيه لمحة من الصوفية، ولكن لا يمكن إنكار أن سورة البقرة لا تجاريها سورة أخرى من حيث تنوع المواضيع وسعة الأحكام.

أما قوله ﷺ بأن الشيطان لا يدخل بيتاً تُقرأ فيه سورة البقرة، فإنما يعني أنه إذا تدبر الإنسان ما تتضمنه هذه السورة من وسائل لصد هجمات الشيطان ووساوسه لعجز الشيطان عن أن يدخل بيته.

وأما قوله ﷺ إن الشيطان لا يدخل البيت حتى الصباح.. ففيه إشارة إلى أن التعليم، مهما كان عظيماً، فلا يترك أثراً كاملاً إذا لم يُتعهد مرة بعد أخرى. والتأثير الصالح مهما كان عظيماً، فإنه سرعان ما يزول ما لم يُجدد.

وأما قوله ﷺ إن من قرأ الآيات العشر المذكورة في الحديث فرَّ الشيطان من بيته.. فالمراد به أيضاً أن في هذه الآيات خلاصة الإسلام. فالآيات الأربع الأولى من سورة البقرة ترسم صورة حياة عملية طاهرة. أما آية الكرسي والآيتان التاليتان لها والآيات الثلاث الأخيرة منها فتشتمل على دعوات تطهر القلب.. وهذه الأمور الثلاثة، أي الأعمال الصالحة بحسب كلام الله تعالى، والتفكير في صفاته تعالى، والارتقاء على العتبة الربانية بالدعاء والابتغال.. إذا اجتمعت تطهَّر قلب الإنسان وفرَّ عنه الشيطان.

ترتيب السورة:

هذه السورة هي أول سورة من المفصلات، بدأ نزولها من السنة الرابعة عشرة للبعثة النبوية، ولم تنزل تنزل لسنوات حتى اكتملت قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل. لماذا حدث ذلك؟ لماذا لم يدون المصحف حسب نزول الوحي القرآني؟

لقد أجاب على السؤال بعض أعداء الإسلام، بل بعض المسلمين بقولهم أنه قد تم تدوين القرآن الكريم حسب طول السور وقصرها، دون أن يلاحظ في ذلك أي ترتيب معنوي. وهذا الزعم لغو بعيد عن الحقيقة تماماً وذلك للأسباب التالية:

أولاً: ترتيب السور في المصحف يبطل هذا الادعاء، فالسورة الأولى (الفاتحة) قصيرة حيث تشتمل على سبع آيات فقط، والسورة الثانية (البقرة) طويلة جداً، والثالثة (آل عمران) هي أقل من ١١ رُبْعاً، والرابعة (النساء) هي ١٢ رُبْعاً، والسور التالية أيضاً تختلف من حيث الطول والقصر اختلافاً كبيراً. فالقول بأن السور مرتبة حسب طولها غير صحيح.

ثانياً: جمع القرآن الكريم ليس من عمل البشر، بل ولا من فعل الرسول ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٨).. أي أن جمع القرآن الكريم ونشره في أنحاء العالم هو من اختصاصي أنا، وسوف يتم كلاهما بأمرى وتحت إشرافى. فلا يمكن للمسلم أن يعتبر جمع القرآن وترتيبه من عمل إنسان. أما غير المسلمين فلهم جوابنا الذي ذكرناه آنفاً.

ثالثاً: إن لكل سورة من القرآن الكريم مضموناً خاصاً بها يتصل بمضمون السورتين السابقتين واللاحقة لها. ولو كان ترتيب السور حسب طولها وقصرها ما أمكن أن يتحقق هذا الربط والوصل بين مواضيعها. ولسوف يتضح هذا الأمر جلياً عند تناول الربط والوصل بين مواضيع سور القرآن.. بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان.

ولسائل أن يسأل إذا كان ترتيب سور القرآن في المصحف من وحي الله تعالى.. فلماذا لم يترل القرآن بهذا الترتيب نفسه؟

وجواباً على ذلك نقول: من اللازم أن يكون ترتيب الكلام الحكيم مختلفاً عن ترتيب نزوله، فكلما يبعث نبي بشريعة جديدة فيها عقائد وتكاليف للناس وتتضمن منهجاً وهداية تامة.. فلا بد أن يكون بداية ما يتنزل عليه من وحي مختلف عما يبدأ به تدوين ذلك الوحي.. لأن الأمور التي يجب بيانها للناس في بداية دعواه، عندما يكونون غير عارفين بدينه تماماً.. يجب ألا تُذكر في بداية التدوين.. عندما يكونون قد عرفوا كلام الله إلى حد ما. وبمقتضى هذه الحكمة كان ترتيب نزول سور القرآن مختلفاً عن ترتيب تدوينها في المصحف.

هذا الموضوع تتضمنه هذه الآيات الأولى من الوحي القرآني، بل تناولته أيضاً السور التي نزلت في الفترة الأولى من الوحي. فمثلاً سورة المدثر تشير إلى ذلك الموضوع حيث تقول: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿٢﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٣﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٤﴾.

أي يا من تدرت بجلعة النبوة.. قم ونبه الناس وكبر ربك. ثم هناك سورة المزمل وهي من أوائل السور نزولاً.. تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿٢﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٤﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٦﴾.. يا من تزلت برداء النبوة.. قم في الليالي لعبادة الله، واقضها في قراءة القرآن، لأننا سنحملك مسؤولية لا يسهل حملها.

يتبين من مضامين هذه السور الأوائل في الترتيل أنها إلى جانب بيان صفات الله تعالى، والغاية من خلق الإنسان، وضرورة عبادة الله، وذكر انتشار الشرور والآثام، وغيرها من المواضيع.. فإنها تحث النبي ﷺ على التبليغ والدعوة إلى الله، وتسعى لخلق الحماس في قلبه للقيام بذلك. أو بعبارة أخرى أعدت هذه الآيات الرسول ﷺ لمهمة جديدة.. هي مهمة النبوة. والظاهر أنه بدون هذا الإعداد لم يكن ﷺ ليُدرك خطورة هذه المهمة التي سيعهد بها إليه، كما لم يكن ليؤديها حق الأداء. وإذا، كانت هناك في البداية ضرورة لمثل هذا الوحي. ثم بعد هذا كانت هناك حاجة لبيان صفات الله تعالى، وضرورة النبوة، ومواضيع التقوى والطهارة، وأهمية الدعاء، ومسائل القضاء والقدر والبعث بعد الموت.. إذ لم تكن هناك جماعة قد تكونت بعد، ولم يكن الدين قد اكتمل، وكان من الضروري أن تبين للناس بإيجاز أمور أساسية هامة.. كي يعرفوا هذه المبادئ التي تميز الإسلام عن الديانات الأخرى.

وعندما اكتمل نزول القرآن، وازداد عدد المسلمين، وعرف الذين كانوا يعيشون معهم من غير المسلمين بهذه الأمور، ووجد جيل جديد من المسلمين الذين تعلموا هذه المبادئ الأساسية من آبائهم.. ظهرت الحاجة إلى ترتيب القرآن للقارئ ترتيباً آخر يسد حاجات كل زمن إلى الأبد. ولم تكن عندئذ حاجة ليقال للرسول ﷺ أن يا محمد، إن قومك قد فسدوا، وعندهم ملكات عطلوها ولا يستفيدون منها، فقم أنت وبلغهم كلام الله وادعهم إليه. الآن يجب أن يكون أول المخاطبين بالقرآن الكريم هم المؤمنون به، الذين تحقق في زمنهم انتصار الإسلام، ويجب أن تكون للقرآن بداية تبين به الغرض من

نزوله، وما عليهم من مسؤوليات بوصفهم مسلمين. كما لا بد الآن أن يحاول غير المسلمين النظر إلى القرآن نظراً فلسفياً متسائلين: ما الحاجة إلى دين الإسلام في وجود ديانات أخرى؟ وما هي الغاية التي يحققها المسلم ولم يحققها أبناء الديانات الأخرى؟ كما سيقارنون تعليم الإسلام بتعاليم الكتب السابقة مقارنة تفصيلية، ويبحثون فيما إذا كان الإسلام ونبيه ﷺ مصداقاً للنبوءات التي جاء بها الأنبياء السابقون عن خاتم النبيين.

وخلاصة القول إنه بعد اكتمال التزول.. اختلف الأسلوب الذي يتوجه به المؤمنون وغير المؤمنين إلى القرآن الكريم. والكتاب الكامل لا يمكن أن يبقى على كماله إلا إذا وضع في الاعتبار هذه الحالات المتغيرة. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي سد هذه الحاجة، وراعى هذه الحكمة التي لم تراعى التوراة ولا الإنجيل ولا غيرها من الكتب السابقة.. بحيث كان ترتيب الكلام الإلهي في بداية نزوله مراعيًا للمخاطبين الأول، ثم تغير ترتيبه بعد انتشار الدين ليراعي حاجات الناس في ذلك الوقت وما بعده.. حتى يكون لمواضيع الكتاب وقع أكبر بحسب الأحوال المتغيرة. فالفرق الموجود بين الترتيب القرآني من حيث التزول، وترتيبه من حيث التدوين، ليس محل اعتراض.. وإنما هو علامة امتياز وفضيلة.

أما سورة البقرة فيتبين عند دراستها أنها تردّ على كل الأسئلة الطبيعية التي تثيرها الفطرة الإنسانية من وجهة النظر الفلسفية إزاء الدين الكامل. وتدل مضامينها على أنها ما نزلت إلا لتأتي في بداية القرآن.. بل إنها، كما سنبيّن، ترتبط بسورة الفاتحة ارتباطاً خاصاً وتتمم مضامينها.. مما يدل مرة أخرى أنها لم توضع في بداية القرآن لطولها، وإنما بسبب ارتباطها العميق بمضامين سورة الفاتحة.

هناك لطيفة أدبية جديرة بالذكر بصدد سورة البقرة. لبيد بن ربيعة العامري شاعر جاهلي من شعراء المعلقات. أسلم في آخر أيامه، وتأثر بفصاحة سورة البقرة وبلاغتها حتى هجر قرص الشعر. وسأله سيدنا عمر رضي الله عنه أن ينشده شيئاً جديداً من شعره.. فأخذ لبيد يتلو سورة البقرة. فقال له سيدنا عمر: سألتك أن تنشديني بعض شعرك الجديد؟ فأجاب لبيد: ما كنت لأقرض بيتاً من الشعر بعد أن علّمني الله البقرة وآل عمران. فسُرّ عمر من جوابه كثيراً وأمر بزيادة راتبه السنوي من ألفي درهم إلى ألفين وخمسمائة درهم. (أسد الغابة)

قد تبدو هذه الواقعة في ظاهرها عادية، ولكننا إذا وضعنا في الاعتبار مقام لبيد بين العرب وقتئذ فلا تبدو عادية. كان لبيد ذا مكانة مرموقة في الأوساط الأدبية العربية في زمن أوج الأدب العربي، وكلام شعراء ذلك الوقت يعتبر حتى اليوم من أجمل الشعر. هذا الشاعر الكبير الذي كان يعد ملك البلاغة والشعر يتأثر من بلاغة سورة البقرة وينبهر منها حتى يتخلى تماماً عن قرص الشعر الذي كان غذاءً روحه وسبب عزه، والذي بوّءه مكان الصدارة في مجالس الحكام العرب. وعندما طلب إنشاد بعض كلامه

الجديد.. قال في حيرة: هل بقي هناك مجال لكلام آخر غير سورة البقرة؟ وهذا يجبرنا على الاعتراف بأن هذا التأثير لا يمكن أن يكون إلا من كلام معجز.

خلاصة سورة البقرة

قبل أن أشرع في تفسير السورة آية آية.. أرى من المناسب هنا أن أجمل خلاصة مضامينها، وهذا سوف ييسر على القارئ تفهم سبب وضع هذه السورة في مقدمة القرآن الكريم رغم تأخرها نزولاً، وإدراك ترتيب مضامينها بصورة موجزة، وهذا بدوره سوف يساعده على فهم معانيها.

لقد ذكرت عند تفسير الفاتحة أن ملاكا علمني تفسيرها في الرؤيا. أما تفسير سورة البقرة فلم أتلّقه بهذا الطريق، ولكن مما لا شك فيه أن الله تعالى قد علمني إياه عن طريق الإلقاء. وكل من تدبر يدرك أن النكتة التي علّمْتُها في هذا الصدد تحوّل هذه السورة كلها إلى موضوع مرتب ترتيباً محكماً، وبالتالي لا بد له من التسليم بأن هذا التفهيم لم يكن إلا بفضل الله وحده. وبيان ذلك أنه قبل حوالي سبع وعشرين سنة كنت أعلم القرآن لبعض أصدقائي، وكان الدرس في سورة البقرة. وعندما وصلت إلى قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٣٠).. أُلقي في روعي فجأة أن هذه

الآية هي مفتاح مضامين سورة البقرة، وأن مواضعها هي نفس مواضع السورة، ورتبت بنفس الترتيب. وعندما درست سورة البقرة على ضوءها لم يكن هناك حد لدهشتي وسعادي وامتتاني لله تعالى إذ وجدتُ مضامين سورة البقرة مطابقة تماماً لمضامين هذه الآية. ليس هذا فحسب، بل رسخت هذه المضامين في ذهني رغم تعددها حتى وجدت أنها منظومة كعقد من اللآلئ.

إذا تدبرت هذه الآية وجدتها تذكر دعاءً لسيدنا إبراهيم دعا به الله تعالى ليعث نبياً في مكة. يقول الدعاء: ابعثْ يا رب في هذا البلد، وبين هذا القوم، نبياً يقوم بالمهام التالية:

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾.. أي يأتي بآيات ودلائل من الله تعالى تصحح الإيمان واليقين

وتقومهما، وتنشئ علاقة بالله تعالى، وتكون معالم ومنازل على الطريق المؤدي إلى الله تعالى:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ..﴾.. أي يقدم للناس كتاباً شاملاً كاملاً.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾.. أي يأتي بشرعية مصحوبة ببيان حكمة أحكامها والغرض من الدين والأمر

المتعلقة به والتي عليها مدار رقيه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. أي يختار وسائل تهدف إلى ازدهار الأمة وطهارتها.

وعندما درستُ سورة البقرة على ضوء هذه المواضيع وجدت مواضيعها تتطابق تماماً مع مواضيع الآية لفظاً لفظاً، بل وجدتها مرتبةً بنفس الترتيب المذكور في الآية. كما وجدت في كل عنصر من هذه العناصر الأربعة إشارات إلى كلمات هذه الآية. بمعنى أن مضمون آيات سورة البقرة تشير إلى الآيات والدلائل، ثم إلى الكتاب، ثم إلى الشريعة وحكمتها، ثم إلى التزكية. فقد ورد موضوع "تعليم الكتاب"

حتى الركوع ٢ رقم ٢٠ عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ

مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ

بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٨). ثم موضوع "حكمة الشريعة" بعد ذلك حتى الركوع رقم

٣١ عند قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آية:

٢٤٣). ثم موضوع "التزكية" يستمر إلى آخر السورة. ومن يدرس سورة البقرة من هذا المنظور يدرك بشكل مدهش سعة وشمول معانيها، وما لترتيبها من حسن وتأثير.

خلاصة الركوع الأول (الآيات من ١ إلى ٨)

في سورة الفاتحة دعاء علمنا الله إياه لطلب الهداية، وفي الآيات الأولى من سورة البقرة إشارة إلى هذا الدعاء وقيل: إن الهداية التي التمستموها في سورة الفاتحة، أي هداية المنعم عليهم في السابقين، هي هذا الكتاب.. القرآن الكريم. وبتزول هذا الكتاب لبى الله تعالى نداء الفطرة الذي كان يهز عرش الرحمن، والذي ارتفع من قلوب الناس عند اندراس هداية الكتب السابقة.

ثم يقول عز وجل إن القرآن الكريم لا يقدم للعالم منهجاً هادياً فحسب، بل منهجاً كاملاً شاملاً كل الحقائق الموجودة في الأديان السابقة.. ولذلك لا يبني دعواه على الطعن والتشكيك في تلك الديانات. وهذا الكتاب لا يقتصر على تحسين أخلاق وتصحيح سلوك الإنسان فحسب، بل يسمو به إلى مقام

٢ بالإضافة إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضاً إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وأندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي.

توطيد علاقة حب خالص مع ربه تعالى. يذكر هذا الكتاب أموراً اعتقادية يجب أن يؤمن بها المؤمنون، كما يبين لهم طرق العبادة التي ينبغي لهم السير فيها، ويوضح لهم حقوق بني جنسهم التي لا بد لهم من أدائها. كما يذكر لهم هذا الكتاب أحوال مؤسسي الديانات السماوية السابقة، ويتناول كل الحقائق المتعلقة بالماضي والمستقبل التي يجب عليهم الإيمان بها كلها. وينبغي ألا يكون هذا الإيمان شكلياً، بل لا بد من تقديم التضحيات في سبيله.. لأن الناس سوف يعارضونهم، ولكن يفشل المعارضون في النهاية.

خلاصة الركوع الثاني (الآيات من ٩ إلى ٢١)

وسيكون هناك أناس منافقون يتظاهرون بالإيمان وقلوبهم فارغة منه. وسيكون هناك طائفة أخرى مؤمنة، ولكنهم لجنهم الشديد لا يترددون في إقامة علاقات سرية مع أعداء الإسلام. إلا أن عداوة هؤلاء ومؤامرات أولئك.. لن تضر الإسلام شيئاً.

خلاصة الركوع الثالث (الآيات من ٢٢ إلى ٣٠)

فعلى كل من يؤمن بالله تعالى أن يدخل في هذا الدين، ويشترك في عبادة الله وحده، وينال مقام التقوى، ويصل بمعونة القرآن الكريم إلى ربه.. فهذا هو الغرض من خلق العالم. وإذ قال قائل كيف نقبل هذا الإدعاء القرآني؟ فقل لهم: لا بد وأنكم تتبعون ديناً من الأديان، فقيسوا القرآن بتعاليم دينكم. فإن لم تجدوا تعاليمه أسمى مما عندكم فلكم الحق عندئذ في رفضه.. وإلا فلا مناص لكم، بناء على مبادئ دينكم من التسليم بكون هذا الكتاب سماوياً متضمناً تعليماً أسمى مما في الكتب السابقة. كما يمكن لكم أن تتباروا مع أتباع القرآن في مجال الإتيان بالآيات السماوية لتعرفوا من الذي يحظى بتأييد الله تعالى. فإن أبيتكم إلا الرفض دون تفكير فلا مفر لكم من عذاب النار. ولا شك في أن المؤمنين بهذا التعليم سينالون النعم الإلهية باستمرار، لكي لا يظن أحد أن هذه النعم جاءتكم صدفة وليست ثواباً من الله تعالى. لقد أشرنا إلى هذه النعم على وجه الإجمال، وإلا فسوف تتضح عظمة هذه البشارات في حينها.. وعندما يزداد الكافرون كفراً والمؤمنون إيماناً ويقيناً. وحرمان الكافرين من الإيمان نتيجة طبيعية، فالعين المريضة لا تستطيع رؤية النور.

كيف لا يستطيعون رؤية صدق القرآن، وهو ليس بدعا من الكلام الإلهي. فقد جاءت الهداية السماوية في الماضي إلى أقوام كانوا موتى في الروحانية فبعثوا بها من جديد. فما الذي يقطع سلسلة الهداية هذه؟ لقد جاءكم الحق من الله تعالى طبقاً لهذه السنة الإلهية المستمرة، وليأتين في المستقبل كذلك. وما المانع من قياس صدق القرآن بالمقاييس التي عُرف بها صدق الكتب السابقة؟

ثم يقول: لم لا ينظر هؤلاء إلى نظام الكون الدال على سنة الارتقاء الذي تتجلى فيه يد القدرة الإلهية؟ ولماذا يختلقون الأعذار الواهية ليرفضوا الحلقة الأخيرة من سلسلة الارتقاء، مع أن هذه الحلقة الأخيرة هي الهدف النهائي لنظام الارتقاء، وبتركها يبقى ناقصا.

خلاصة الركوع الرابع (الآيات من ٣١ إلى ٤٠)

ثم يذكر الحلقة الأولى من هذه السلسلة.. سيدنا آدم، أول من تلقى الوحي.. فقال: إنكم تؤمنون بآدم، فما الدليل على صدقه عندكم؟ إن بوسعكم معرفة صدق محمد ﷺ بالمعيار الذي عرف به معاصرو آدم صدقه. لقد أثرت الاعتراضات على شخصه، ولم تكن من أشخاص عاديين، بل من أناس هم كالملائكة، ولكن هل نال هذا من صدقه؟ إن الله تعالى أيده حتى لم يبقَ على ملائكتيه إلا من أطاعوا آدم ووضعوا أيديهم في يده، وخرروا بين يديه في تواضع. أما الباقون فقد تحولوا إلى شياطين.

خلاصة الركوعات من ٥ إلى ١٤ (الآيات من ٤١ إلى ١٢٢)

ولا يظن أحد أن كلام الله قد نزل على آدم عليه السلام فلا حاجة إلى نزول كلام آخر بعده. فمن المعلوم أن الله لم يزل يتزل وحيه بعد آدم حسب حاجة البشر.. إلى أن نزل كلام الله تعالى على موسى عليه السلام، وما ذلك منكم ببعيد. لقد بعث لإصلاح قومه بني بعد نبي، ولكن قومه ما انفكوا يعصون مرة بعد مرة. ففضى الله تعالى بتحويل مركز الوحي من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل فبعث فيهم محمدا ﷺ بشريعة نهائية. والآن بدأ بنو إسرائيل يعادونه حسدا من عند أنفسهم، وسيكون مصير هذه العداوة مثل مصير عداوة الأمم الغابرة لأنبيائهم.

خلاصة الركوع الخامس عشر (الآية من ١٢٣ إلى ١٣٠)

ثم يجب على بني إسرائيل أن يعرفوا أن أفضل الله التي نزلت عليهم كانت بسبب وعود قطعها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، ولم تكن هذه الوعود خاصة ببني إسحاق وحدهم، وإنما تشمل بني إسماعيل أيضاً. لذلك كان من الضروري أنه إذا قصر بنو إسحاق في أداء واجباتهم أن يتم الوفاء لبني إسماعيل بوعودهم. ولتحقيق هذه الوعود قدر الله تعالى مجيء إسماعيل عليه السلام للعيش في واد غير ذي زرع عند مكة المكرمة. وأخيرا حان أن ينال بنو إسماعيل ثمرة هذه التضحية. فبعث الله الآن فيهم نبيا، من مهامه أن يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

خلاصة الركوع السادس عشر (الآيات من ١٣١ إلى ١٤٢)

ولا حق لبني إسرائيل أن يمتعضوا من ذلك، بل عليهم أن يتذكروا أن آباءهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام قد نصحوهم بأن العز الحقيقي هو في الطاعة الكاملة. فعليهم أن ينالوا نعم الله تعالى عن طريق طاعته، ولا يثيروا غضبه بالعصيان.

خلاصة الركوعين ١٧ و ١٨ (الآيات من ١٤٣ إلى ١٥٣)

يعترض بنو إسرائيل على محمد رسول الله ﷺ لأنه ترك قبلة الأنبياء السابقين.. ولكنهم ينسون أن القبلة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي عامل على الوحدة. ثم عليهم أن يتذكروا أن إجابة دعاء إبراهيم في حق بني إسماعيل تتضمن نبأ بأن الكعبة المشرفة ستكون قبلة للناس، وأن مكة المكرمة ستكون مركز الحج. فإذا كان محمد ﷺ هو الذي تحقق فيه هذا النبأ.. فحق له أن يعلن كون الكعبة قبلة الناس وإلا استحال على قومه نيل نصيبهم من البركات التي صارت منوطة بهذه القبلة نتيجة لدعاء إبراهيم. لذلك أمره الله تعالى بتطهير الكعبة تطهيرا ظاهريا.. وذلك بفتحها وتحريرها وإزالة معدات الشرك منها، وتطهيرها باطنيا.. وذلك بتخليصها من أفكار الشرك والكفر، وجعلها قبلة للعالم كله.

خلاصة الركوع التاسع عشر (الآيات من ١٥٤ إلى ١٦٤)

ثم يقول إن هذه المهمة مخفوفة بالصعاب، وأن الكفار سيسعون لمنع المسلمين من ذلك بحد السيف. فلا تخافوهم، بل امضوا قدما مستعينين بالدعاء والسعي الحثيث، وتذكروا أن من يُقتل في سبيل الله يفز بالحياة الأبدية، وأن الفوز محتم للمسلمين، ولا بد أن تفتح مكة ليجد المسلمون الفرصة لتطهيرها ظاهرا وباطنا.

خلاصة الركوع العشرين (الآيات من ١٦٥ إلى ١٦٨)

في هذا الركوع استخدم القرآن كلمة (آيات) ليشير إلى قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ وبين أن الأمور التي ذكرناها آنفا ليست من قبيل الادعاء الفارغ، بل إن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وسائر الظواهر الكونية تصدق ذلك. فأولا: إن قانون الكون المادي واكتماله بالارتقاء يقضي وجود قانون الكون الروحي الذي يكتمل أيضا بالارتقاء. وثانيا: سوف ترون بأنفسكم أن السماء والأرض والليل والنهار والسحاب والرياح ووسائل النقل في البر والبحر، لا تنفك تعمل في تأييد محمد رسول الله ﷺ ونصرته، لتعرفوا أن هذا الشخص محبوب عند الله تعالى، وهذا هو السبب في أن الكون كله يعمل لنصرته.. وإلا فإن الذي يسلك طريقا ينأى عن الله تعالى يُذَل ويُهان.

ولقد انتهى إلى هذا الركوع معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾.

خلاصة الركوع الواحد والعشرين (الآيات من ١٦٩ إلى ١٧٧)

بدأ من هذا الركوع العنصر الثاني من دعاء إبراهيم.. أي الشريعة مع بيان حكمها. فشرع بالأمر بأكل الحلال والطيب، لأن أعمال الإنسان تابعة لحالته الذهنية، وهذه تتأثر بالغذاء الذي يتناوله الإنسان. والحلال ما رخصت به الشريعة، والطيب ما تجيزه مبادئ الصحة والعرف والذوق السليم. وبين أربعة أصول تتعلق بالأطعمة المحرمة، فقال: لا تأكلوا الميتة التي بدأت تتغير طعمًا أو رائحة أو هيئة؛ ولا تأكلوا الدم وما شابهه.. أي المواد السامة، ولا تأكلوا لحم الخنزير لأنه سيئ الطباع، ومن أكل لحمه أخذ من سوء طبعه، ولا تأكلوا ما يُفقد الإنسان الغيرة لله تعالى.. كالأطعمة التي توزع في مناسبات الشرك وغيرها.

خلاصة الركوع الثاني والعشرين (الآيات من ١٧٨ إلى ١٨٣)

يبين هذا الركوع خلاصة التعاليم الإسلامية من إيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والنبين.. كي لا يقع الإنسان في إنكار أي حقيقة من الحقائق. ويؤكد بضرورة حسن المعاملة مع الناس، وعبادة الله، والإنفاق في سبيل الأهداف القومية، وحسن الخلق، والصبر والوفاء بالعهد، وإقامة العدل، ومساعدة الأقارب بالبر، ووضع القوانين للتمدن الاجتماعي التي من أهمها قانون الميراث.

خلاصة الركوع الثالث والعشرين (الآيات من ١٨٤ إلى ١٨٩)

لا بد لتحسين الأخلاق من تدريب ظاهري، ولهذا الغرض فرض الإسلام الصوم. فالصوم يصحح الأخلاق، ويساعد على الدعاء ويزيده تأثيرًا.

خلاصة الركوعين ٢٤ و ٢٥ (الآيات من ١٩٠ إلى ٢١١)

يتناول هذا الركوع قواعد الحج الذي هو ذريعة لوحدة الأمة، ويبين أن من يعيث الفساد في الطرق المؤدية إلى هذا البلد الآمن فالحرب ضده ليست فسادًا، بل هي وسيلة لاستتباب الأمن، فعلى المسلمين ألا يحجموا عن محاربة هؤلاء. كما يبين أنه لا يمكن أن يتمسك العالم كله بجبل واحد إلا إذا كان لهم مركز واحد، ومن ثم فلا تحسبوا أمر الحج هينًا.

خلاصة الركوع السادس والعشرين (الآيات من ٢١٢ إلى ٢١٧)

وردت في هذا الركوع الحكم وراء الأوامر الإلهية. فنبه ألا تنظروا إلى الشريعة بعدم الاكتراث.. فالظاهر يساعد على إصلاح الباطن. والسبب الحقيقي في مخالفة الشريعة هو حب الدنيا، لأن الإنسان لا يريد أن يبذل أوقاته وأمواله في سبيل الله، وفرارا من حمل هذا العبء يختلق المعاذير.. وهي السبب وراء

كثرة الخلافات في العالم، فيشوه الناس تعاليم الأنبياء ويبدلونها إلى ما يخالفها تماما.. مع أن تطهير النفس لا يمكن أن يتم من دون بذل وتضحية.

ثم ذكر الصدقات وعدد مصارفها، وبيّن أن أعظم مصرف للصدقات أن تنفق في الجهاد في سبيل الله.. ضد من يعتدون على الآخرين بسبب عقيدتهم ويسلبونهم حرية الضمير.

خلاصة الركوع السابع والعشرين (الآيات من ٢١٨ إلى ٢٢٢)

وإذا كان الوضع هكذا فلا مناص من القتال والتضحية بالمال والنفس، حتى وإن هاجمكم أعداء الحق في أشهر الحج التي يحرم فيها القتال، فلکم الحق في قتالهم. ويميل الناس في أوقات الحرب عادة إلى ممارسة القمار وشرب الخمر طلباً للهو وجمعاً للمال اللازم للحرب.. فقال: إن حرب المسلمين حرب دينية مقدسة، وإن سكينه قلوبهم لتكمن في رضا الله تعالى، لذلك ينبغي عليهم تجنب هذه المساويء. ثم بيّن أنه لا حد للتضحية المالية. فعلى الإنسان أن يضحي بأكثر ما يستطيع دون الإضرار بحقوق الآخرين عليه.

ثم ذكر أن اليتامى يكثرّون بسبب الحروب، فعاملوهم خير معاملة. واحذروا من الزواج بالمشركين والمشركات، لأن هذا إخلال بالنظام.

خلاصة الركوعات ٢٨ إلى ٣١ (الآيات من ٢٢٣ إلى ٢٤٣)

ثم بين الأحكام الخاصة بالنساء. فنهى عن مباشرتهن في الحيض، وأمر بحسن معاشرتهن. وقال إذا اضطرتن لهجرهن فلا يطولن الهجر أكثر من أربعة أشهر. أما إذا لم تستطعوا الاستمرار في العيش معهن فطلقوهن. بعد ذلك بين أحكام الطلاق والرضاعة وأحكام الأرامل. وبذلك ينتهي موضوع تعليم الكتاب والحكمة.

خلاصة الركوعين ٣٢ و ٣٣ (الآيات من ٢٤٤ إلى ٢٥٤)

يبدأ هنا موضوع التزكية ومبادئها. فبيّن أن الرقي القومي غير ممكن من دون تضحية. فتذكروا دائما أن الحياة لا تُكتب إلا لقوم مستعدين لاستقبال الموت. وبهذه الطريقة يحيي الله الموتى.. بمعنى أنه تعالى يصدر أوامر يحسبها القوم موتاً لهم، ولكنهم إذا عملوا بما كتبت لهم الحياة.

خلاصة الركوع الرابع والثلاثين (الآيات ٢٥٥ إلى ٢٥٨)

ذكر الله فيه أن الحياة الدنيا تنتهي على حين غرة، ولذلك يجب أن تسارعوا إلى فعل الخيرات وإنشاء علاقة بالله جلّ وعلا قبل فوات الأوان. ثم هناك بيان موجز، ولكنه جامع للصفات الإلهية.. ألا وهو آية الكرسي التي سماها الرسول ﷺ سيدة آي القرآن. ثم بيّن أن الإنسان لا يحتاج إلى جبر وإكراه لإنشاء

علاقة مع هذا الربِّ المتصفِ بتلك الصفات الحسنى، ذلك لأنَّ حُسْنَهُ خلاب للقلوب. ومثل هذه الصلة بالله القائمة على المحبة هي التي تنفع الإنسان. لذلك إياكم واللجوء إلى الإكراه في أمور الدين.. لأنَّ غرض الدين هو التزكية، وتزكية القلوب لا تتم بالإكراه. وإنَّ اللذين ينعم الله عليهم بالقرب والولاية يزيل عن قلوبهم الظلمات بالدلائل والبراهين، ولا يرضى من أحد بظاهر الأقوال.

خلاصة الركوع الخامس والثلاثين (الآيات من ٢٥٩ إلى ٢٦١)

والتزكية التي تُمنح من الله تعالى على نوعين، الأولى التي يهبها الله للأفراد مباشرة، كتركيته تعالى للأنبياء، والثانية التزكية القومية التي توهب للأمم عن طريق الأنبياء. ثم ذكر أن الله تعالى قدَّر أن يمنح هذه التزكية بنوعها لذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام في أربعة أزمنة بوجه خاص.

خلاصة الركوع السادس والثلاثين (الآيات من ٢٦٢ إلى ٢٦٧)

ثم بين أن الحصول على التزكية القومية يقتضي سعيًا وتعاونًا جماعيًا. وقد يعترض معترض بأن التعاون الجماعي هو سبب ازدهار أي قوم سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. فالجواب أن غير المؤمنين بالله تعالى إذا تعاونوا على فعل شيء كانت نتائج أعمالهم بقدر جهودهم.. أما الذين يتعاونون لوجه الله تعالى فتكون نتائج أعمالهم أعظم كثيرًا من تضحياتهم. ومن علاماتهم أنهم (أولًا) يقدمون تضحياتهم امتثالًا لأمر الله تعالى وإقامةً لشريعته، و(ثانيًا) يبذلون تضحياتهم ابتغاء مرضاة الله، ولا يُمْتُون على عباده شيئًا.

خلاصة الركوع السابع والثلاثين (الآيات من ٢٦٨ إلى ٢٧٤)

والذين يضحون لوجه الله تعالى لا تضيع أعمالهم، وتطمئن قلوبهم بها، وتتطهر أعمالهم. ثم يبين أن الإحسان إلى أي أحد أمرٌ محمود، ولكن إذا كان إلى الذين يشتغلون في إصلاح الخلق فهذا أدعى لجزيل الثواب.. مع ملاحظة أن يكون الإحسان بطريق مشروع.

خلاصة الركوع الثامن والثلاثين (الآيات من ٢٧٥ إلى ٢٨٢)

ثم بين أن التعامل بالربا يتعارض مع الإحسان وروح التعاون الجماعي، ويجب على المؤمن تجنبه. إنَّ الأمم التي تتعامل بالربا جريئة على شن الحروب، ولا تحفل بأمن الشعوب، فلا تخافوا الحرمان من الازدهار إذ امتنعتم عن التعامل الربوي، لأننا سوف نهيب الأسباب لتدمير الأمم المتعاملة بالربا.

خلاصة الركوع التاسع والثلاثين (الآيات من ٢٣٣ إلى ٢٨٤)

والإقراض من طرق الإحسان والتعاون الجماعي. وإذا كان الإنسان غير قادر على أن يهب ماله لأخيه المحتاج.. فبوسعه أن يساعده بإقراضه إياه، ويجب عليه ألا يتردد في إسداء المعروف. ولما كان

القرض سيُردُّ بعد فترة، لذلك تجب كتابته أمام شهود؛ لتجنب الخصام وما يترتب عليه من فساد. وإذا لم يكن هناك كاتب فيمكن الإقراض نظير رهن كشهادة على الدين.

خلاصة الركوع الأربعين (الآيات من ٢٨٥ إلى ٢٨٧)

ولكن أفضل وسائل الطهارة هي (أولاً) أخذ صفات الله تعالى في الاعتبار، و(ثانياً) الإيمان بكلام الله تعالى والتفكير فيه، و(ثالثاً) الدعاء من قِبَل الأنبياء والصلحاء ومن يتعلق بهم.

هذه خلاصة سورة البقرة. وفيها أقيمت الحجة مباشرة على اليهود والنصارى وقريش.. حيث قيل لهم: كان هناك دعاء لإبراهيم قَبْلَهُ اللهُ تعالى، وكان تحقيقه منتظراً.. وها هو محمد رسول الله ﷺ تحقيق مجسد له، فإذا كذبتموه كذبتهم إبراهيم لا محالة، وتكذيبه يعني تكذيب السلسلتين من النبوة الموسوية والمسيحية معاً.

كما أثبت الله تعالى بهذا الشكل صدق الإسلام للعالم كله إثباتاً غير مباشر.. إذ من المحال أن يكون خلق الإنسان بلا هدف.

وإذا كان هناك كلام يحقق هذا الهدف فهو كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ.. لأننا نتزود به بأمر هامة.. من معرفة الله، والتشريع الصحيح وحكمته، وتركيب القلب.

إذا قرأ أحد سورة البقرة على ضوء هذه الملاحظات.. فإنه يجد في ذلك لذة جديدة وينفتح له باب واسع على معانيها.

علاقة سورة البقرة بالفاتحة

لسورة الفاتحة ارتباط بكل سورة من القرآن الكريم، لكونها خلاصة له. ولكن ورود سورة البقرة بعد الفاتحة مباشرة في ترتيب المصحف يدل على أنه لا بد أن يكون لها ارتباط بها أكثر من أي سورة أخرى. وأول صلة لها بالفاتحة هي أن الفاتحة خلاصة القرآن كله، كذلك سورة البقرة هي خلاصة القرآن أيضاً.. لأنها تتضمن الدلائل والبراهين والشريعة وحكمتها وأساليب التزكية والطهارة. وهذه العناصر هي الهدف من مجيء مبعوثٍ أخيرٍ وُعد به في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وعلاقتها الثانية بالفاتحة أن هذه تعلّمنا دعاء: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وسورة البقرة

تعلن في بدايتها: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.. بمعنى أن هذه

السورة تحقق الهدف من السير في الصراط المستقيم، وبالتالي هي علامة ظاهرة لقبول دعاء الفاتحة.